آفـــاق الســعادة

السعادة ليست (وصفة) طبية تُعطى للإنسان، فينقلب ضاحكاً، وينطلق منفرجاً. وليست مادة خارجية تُدفع إلى الإنسان فيغدو سعيداً مسروراً، ويروح آمناً مطمئناً. وليست (إكسيراً) سحرياً يصب على الإنسان فيقوم مبتهجاً منتعشاً، ويطير محلقاً منتشياً. وليست -كما يتصور بعض الناس المنبهرين- مقترنة بالأضواء البراقة، والمظاهر النافشة، والأبواق الصاخبة، والشكليات الفارغة، والمناصب الخادعة، والمركبات الفارهة، والبدانة الكاذبة، والشهرة الزائفة. وليست -كما يحلم بعض الناس السادرين- متلازمة مع تكديس الأموال، وكنز الأصفر والأبيض، والانغماس بأوحال الشهوات، وتجرع كؤوس الخمر، واحتساء سموم المخدرات، والتمتع بالأسفار الملوثة، والتزيي بالتقاليع المنكرة. وليست بتشييد القصور الفخمة، والاتكاء على الآرائك المخملية، . . .

فإذا تحققت لهم بعض هذه المظاهر، انقلب الأمر إلى عادة مكررة ذاتية آلية، لا وعي فيها ولا معنى، ولا ذوق، ولا روح، وإلى تقليد مألوف بليد؛ لامتعة فيه ولا لذة، ولا رونق ولا جمال، فيطلبون المزيد من عطاء العاجلة، فإذا عُجلت لهم لم يشبعوا ولم يهنؤوا ولم يسعدوا، وتفلت منهم سعادتهم الموهومة، ويصطلون بنار العذاب والقلق النفسي، ويقضّ مضاجعهم وقع الصدمة، ولهب النار، فيقومون مذعورين، ويأخذون بالنبش عن السعادة من جديد؛ بعيداً عن مكان إقامتها الحقيقية، ثم يغطون في نوم عميق، ويستيقظون هلعين، ثم يركضون وراء سراب آخر، ولكن عبثاً دون جدوى.

وإذا لم يتحقق لهم وأخفقوا، يئسوا وتألموا، واحترقت قلوبهم، وهاجت نفوسهم، وتوجعت أبدانهم، وقد يلجؤون للانتحار، وتبقى القلوب تحترق، والنفوس تتألم، والأبدان تئن، والدموع تذرف، والجروح تنزف طيلة الحياة ما لم يعودوا إلى رشدهم، وتدركهم عناية الله -سبحانه-.

كم كانت سعادة الإنسان لو نهل من الماء المعين، بدلاً من الماء الآسن!؟

وكم كانت عظمة شأنه لو أفرد العبودية للرحمن، بدلاً من أن يهوي لأسماء ما أنزل الله بها من سلطان!؟

وكم كانت طمأنينة قلبه لو اشتغل بالذكر والقرآن، بدلاًمن أن يضل سعيه بالزيغ والتوهان!؟

وكم كانت أفراح روحه لو زغرد بالحب والإشراق والإحسان، بدلاًمن النحيب والقنوط والشنآن!؟

وكم كان علو حياته لو نعم بالنور والأمن والإيمان، بدلاً من الظلام والضنك والحرمان!؟

وكم كان سلام كيانه لو رفرف بالروح والجسم والوجدان، بدلاً من الجنوح والسقوط والامتهان!؟

وكم كان هناء عيشه لو قطف الطيب من الجنان، بدلاً من التخمة والخبائث والطغيان!؟

وكم كانت بركات رزقه لو أسدى الشكر والعرفان، بدلاً من الجحود والنكران!؟

وكم كانت رفعة بيته لو استنار بسنا العلم وروعة البيان، بدلاً من وهدة الجهل وغيابة النسيان!؟

وكم كانت مهابة صفه لو أعد القوة والمنعة والبنيان، بدلاً من الفرقة والمسكنة والهوان!؟

وكم كانت رجاحة عقله لو استظل بالدين الحلال والأفنان، بدلاً من الغول والفحش والإدمان!؟

وكم كانت نضارة وجهه لو تحلى بالحياء والريحان، بدلاًمن (مساحيق) التشويه وفضائح (الإعلان)!؟

وكم كان جلال قدره لو فقه الكتب مع الإتقان، بدلاً من أن ينوء بحملها كالحيوان!؟

وكم كان أمان زمانه لو حكم بالعدل والقسط والميزان، بدلاً من الجور والظلم والعدوان!؟

وكم كان عظيم أجره لو أقبل طالباً للغفران، بدلاً من أن يدبر مكباً كالحيران!؟

وكم كانت سكينة نفسه لو طاف بالبيت وغسل الأدران، بدلاً من أن يجول بالمهازل والأوثان!؟

وكم كانت طمأنينة حياته لو ذكر الله ودحر الشيطان، بدلاً من الكفر والفسوق والعصيان!؟

وكم كان كبير فوزه لو عرف الحق وشهد الفرقان، بدلاً من القعود والغل والخسران!؟

وكم كان فضل جهاده لو أنكر بالقلب والجوارح واللسان، بدلاً من التراخي والتثاقل والخذلان!؟

☆ ☆ ☆

إن السعادة تنبع من داخل الإنسان، وتتفجر في الأعماق، وتفيض فيوضاً على النفس والمشاعر، فتغمرها بالرقة والحنان والأمان.

السعادة هي في الحب الصادق بكل معانيه، وفي تذوق حلاوة الإيمان بكل آماده، وفي ارتشاف لذة الإحسان بكل أبعاده.

السعادة هي في الحياة الموصولة بالله - سبحانه - في واحة الإيمان، وتحت ظلال القرآن.

السعادة هي في المعيشة الرضية الهنيئة، الحافلة بالعمل الصالح والكلم الطيب.

السعادة هي في أن تُدخل السعادة إلى قلوب الناس، وترسم البسمة على وجوههم، وتشعر بالارتياح عند تقديم العون لهم، وتستمتع بلذةٍ عند الإحسان إليهم.

السعادة هي في أن يهدي الله بك -ولو- رجلاً واحداً، وأن تكون سبباً في جعل أعواد الناس الجافة دافقة، وجذورهم المستورة آمنة، وأغصانهم الجرداء مورقة، وبراعمهم الغضة مزهرة، وأبدانهم العجاف متعافية، وديارهم المقفرة عامرة، وأرضهم القاحلة مخضرة، وعيشتهم العقيم مخصبة، وحياتهم الدنيا هادفة، ونفوسهم الغافلة ذاكرة، وعقولهم الجامدة متفتحة،

وعيونهم المحجوبة مبصرة، وآذانهم المصكوكة صاغية، وقطعانهم الشاردة متآلفة، وأجيالهم الضائعة هادية.

السعادة هي في الإيمان والاطمئنان والأمن والأمان.

السعادة هي في الصداقة والانسجام والتناغم والتسبيح مع الكون كله، والانتظام في عقد الوجود الموحّد المضيء الموزون.

السعادة هي في الطموح والتفاؤل والأمل، والقناعة بعد الكد والعمل، والتسليم بقضاء الله، والرضا بما قسم، والقبول الحسن لما أعطى من الخيرات والنعم، والزهد بما في أيدي الناس، ونقاء الصدر من الأحقاد والنقم، والخوف من الله والوجل، والرجاء بعفو الله والأمل، والاتعاظ بالموت وزوال الدهر من الأجل، والطهارة من المعاصي والدرن، والقدوم على الله بقلب سليم؛ في يوم لاينفع فيه مال ولا بنون، ولا يجدي بعد الغرغرة الندم.

السعادة هي في تملي الجمال المطلق، وتأمل جمال الصنعة، وبدائع الحكمة، وعجائب القدرة، وروائع الإعجاز، ولطائف المقادير، في كل شيء من حولنا.

السعادة هي في الوصول إلى معرفة الله - سبحانه -، والتأمل في خلق الله، الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، والتبصر في صنع الله الذي أتقن كل شيء، والتفكر في كتابه العزيز وتدبر آياته، وإدراك جمال خالق الوجود بعد تذوق جمال هذا الوجود، والعيش مع القرآن، والموت على الإيمان.

السعادة هي في حب الله - سبحانه -، والخشوع للرحمن، وحب رسول الله ﷺ، والمؤمنين.

السعادة هي في السمو والعلو والشفوف وحب الخير والفضيلة.

السعادة هي في اختيار الصديق الوفي، وشريك الحياة الصالح، والامتداد بالخلف الرائد، والإبقاء على الأثر النافع، وحفظ التراث السالف، والأخذ من الطيب، والعطاء من الطيب، والاكتساب من الحلال، والإنفاق في الحلال، والأكل من الطيبات، واستجابة الدعوات، وتنزل البركات.

السعادة هي في تقديم هدية تحابب، وباقة روائع، وثلة نفائس، تنضح من شغاف القلب بخلوص الحب، وتتلألأ بسنا العرفان وبريق المعاني، وتفوح

بشذى الذكرى ونفحات الطيب، وتزدان بورد ساحر، وأريج عاطر، وعبير عابق.

السعادة هي في العلم الهادي، وغنى النفس عن كل شيء فان، ورغد العيش مع العطاء الجاري، والقناعة كنز لكل غاد إلى المعالي.

السعادة هي في الكلمة الصادقة تخرج من القلب، والقول المعروف ينبعث من الأعماق، والدعوة المخلصة تترجم إلى الواقع، والموعظة البليغة تُسبق بالسيرة الذاتية، والتبليغ الفاعل يتوج بالأسوة الشخصية، والبيان الموجز يعطي الدلالات المفيدة، والحق الناصع يوقف عنده، والمشهد البارز يعبر عن أثر النعمة، والهدي المبارك ينساح في الأرض، والأحاديث الودية تسترسل بالمفيد والجديد، والخواطر الطيبة تنساب بين الحروف، والجداول العذبة تتدفق في ثنايا السطور، والنيّات الخيّرة تستلهم من وحي الإيمان، والأصداء المؤثرة تتجاوب مع همسات القلوب، والمشاعر المرهفة ترف مع إيقاعات الترتيل، والنفوس الخاشعة تتفاعل من خشية الله.

وأخيراً، فإن السعادة الحقيقية هي التي تمتد إلى حياة الخلود، فلا تنقطع بالموت، وتتواصل إلى عالم البقاء، فلا تمتنع بانتقال الروح وفناء الجسد، وتبلغ ذروتها بالنعمة الكبرى، فلا تُحرم الوجوه المؤمنة من النظر إلى ربها ذي الجلال والإكرام.

إنها قمة السعادة، وسعادة القمة من البشر، سعادة ينعمون بها في حياتهم، ويتهيؤون فيها للدخول - بسلام - في سعادة أبدية، آمنين بمشيئة الله تعالى.

وفي الختام نسأل الله - سبحانه - أن يرزقنا السعادة في الدارين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.